الفصل الثاني

عظماء الرجال و بيئتهم[1]

هنالك تشابه عجيب بين التطور الاجتماعى للإنسان من ناحية وبين التطور الزيولوجى من ناحية أخرى ، كما بينه دارون ؛ وهو تشابه لم يلحظه أحد من قبل .

قد يكون من الخير أن أقدم لبحثى هـذا بذكر بعض اللاحظات العامة حول طريق الوصول إلى الحقائق العلمية ، فأقول إن من المعانى المشهورة أن معرفة شيء ما معرفة كاملة مهما كان حقيراً تستلزم معرفة العالم كله . فلا يسقط عصفور إلى الأرض إلا وتجد طريق المجرة ، أو نظامنا التحالفى ، أو تاريخ أوروبا القديم ، ضمن الأسباب غير المباشرة المؤدية إلى ذلك السقوط . يعنى إذا غيرت طريق المجرة ، أوغيرت نظامنا التحالفى ، أو غيرت طبائع أسلافنا البدائيين ، فإن العالم كان يكون مختلفا كل الاختلاف عما هو عليه اليوم . وقد يكون من العناصر المتضمَّنة فى ذلك الاختلاف ألاَّ يجد الطفل ، الذى قذف الحجر فأسقط العصفور ، نفسه مسامتا للعصفور فى تلك اللحظة المعينة ، أو إذا كان مسامتاً له ، فقد لا يكون فى حالة نفسية تسمح له بأن يرمى العصفور بالحجر . ولكن ، على الرغم من أن هـذا كله حق ، فإنه يكون من الحماقة بمكان أن يتجاهل الباحث عن أسباب موت العصفور الغلام، ولا يعتبره فاعلا مباشراً، ويقول إن السبب الحقيق هو النظام الائتلافى، أوهجرة الجماعة الكلتية إلى الغرب ، أو طبيعة طريق المجرة . وإذا ما جرينا على هذا النحو من التفكير ، فإنه يحق

(١) محاضرة ألقيت فى جمعية التاريخ الطبيعى فى هارفارد .

لنا أن نقول، عند ما تزل قدم صديق لنا بسبب الجليد المتكاثف على بابه فيسقط ميتا ، إن موته تسبب عن تلك الحادثة المشئومة التى حدثت له من بضع شهور مضت ، وهى أنه كان قد تعشى على مائدة ضمت ثلاثة عشر رجلا . إننى أعرف حادثة من هـذه النوع ؛ ويحق لى أن أقول ، إذا ما شئت ، إن السقوط على الجليد المتكاثف لم يكن مصادفة . وقد أقول « ليس هناك فى العالم من مصادفات » ، وإن تاريخ العالم كله ليتضامن ويلتقى ليسبب هذا السقوط . وإذا تخلف شىء مما قد حصل ، فإن السقوط كان لا يمكن أن يحدث فى ذلك الوقت وفى هـذا المكان . وليس القول بإمكان الحدوث فى تلك الحالة إلا إنكارا لقانون السببية والمسببية فى العالم . فلم يكن الانزلاق السبب الحقيقى للموت ، بل الحالات التى أدت إلى الانزلاق ، — ومن بينها جلوسه من ستة أشهر مضت على مائدة كان هو الثالث عشر من أفرادها . ذلك كله هو السبب الحقيقى لموته فى ذلك العام .

ستظهر قريبا الناحية التى سأذكر الآن براهينها . ولقد كان يودى أن أقدم الحقيقة من غير جدل ومن غير مقاذعة . ولكن ، من سوء الطالع ، أننا لا ندرك تمام الإدراك مضمون القضية الصادقة حتى نعلم مضمون ما يناقضها من قضايا كاذبة . فالغلط ضرورى ليظهر الحقيقة على أحسن منوال ، كما أن ظلام الجانب الخلفى ضرورى ليُظهر صفاء الصورة ونضارتها . والغلط الذى سأتخذه آلة موصلة لإبراز ما يبدو لى صوابا يوجد فى فلسفة سبنسر Herbert Spencer ومريديه . ومشكلتنا هى : ما هى الأسباب التى تجعل الجماعات تتغير من عصر إلى عصر ، — التى تجعل انجلترا فى عهد الملكة آن Anne مختلفة كل الاختلاف عنها فى عهد الملكة اليصابات Elizabeth ، أو التى تجعل كلية هارفارد Harvard اليوم تختلف عما كانت عليه من ثلاثين عاما مضت ؟ سأجيب عن هـذا السؤال بقولى نشأ الفرق عن الكثير المتراكم من تأثير

الأفراد ، مما يضربون من مثل ، مما يبتكرون ومما يقررون ويحكمون . ولكن مدرسة سبنسر تجيب بأن التغير مستقل عن الأفراد ولا يخضع لما يملون من إرادة : تنشأ التغيرات عن البيئة ، وعن الظروف والأحوال ، وعن الجغرافية الطبيعية ، وعما كان عليه الأسلاف من حالات ، وعن كل شيء في الحقيقة ، إلا عن الأفراد من زيد وعمرو .

ولكني أقول إن هؤلاء النظريين قد ارتكبوا مثل المغالطة التي ارتكبها هؤلاء الذين نسبوا موت صديقهم إلى تناوله طعام العشاء على مائدة مكونة من ثلاثة عشر رجلا ، أو الذين نسبوا سقوط العصفور إلى طريق المجرة . فهؤلاء يتركون الأسباب الحقيقية ، ويتمسكون بأخرى ليست موجودة في نفسها ولا ممكنة الإيجاد ، من وجهة نظر الإنسان ؛ فمثلهم في ذلك كمثل الكلب في القصة الذي ترك ما في فمه من عظم ليأخذ صورته التي بدت في الماء ؛ وأوهامهم أوهام عملية . فدعونا نرى أين تكون . وعلى الرغم من أنني أومن بحرية الإرادة ، فسأتنازل عن هذا الاعتقاد في هذه المحادثة ، وأفترض مع مدرسة سبنسر أن أفعال الإنسان كلها مقضى بها بالضرورة . وعلى هذا الأساس أقول : إذا كانت القوة التي تبحث عن سبب موت الرجل وعن سبب سقوط العصفور قوة حاضرة في كل مكان وعالمة بكل شيء وقادرة ، لهذا ، على أن تدرك الأزمنة والأمكنة كلها في نظرة واحدة ، فسوف لا يكون هناك من مبرر لنقد النظرية التي ترى أن المجرة والمائدة المشئومة داخلتان ضمن الأسباب المبحوث عنها . إذ تكون هذه القوة الإلهية قادرة على أن ترى في الحال الأسباب اللانهائية التي تتضامن وتؤدي إلى مثل هذه النتيجة ، وعلى أن تراها كلها بلا قصور : فترى أن المائدة المشئومة كانت من الظروف المؤدية إلى سقوط العصفور ، كما كانت من

الظروف المؤدية إلى موت الرجل ، وترى أن الغلام مع حجره كان شرطا فى انزلاق الرجل كما كان شرطا فى سقوط العصفور .

ولكن العقل الإنسانى قد ركب على نحو مخالف كل المخالفة لهذا النحو . إذ ليس له من قدرة على تلك النظرة البديهية الشاملة ، وتضطره محدوديته لأن يرى شيئين أو ثلاثة أشياء فحسب فى اللحظة الواحدة . فإذا أراد أن ينظر نظرة شاملة ، فعليه أن يلجأ إلى الفكر الذهنية العامة ، ولكنه يبتعد ، حينئذ ، عن الحقائق الواقعية . فإذا ما أردنا فى مثل هذه الحال أن نعرف الارتباط بين طريق المجرة والغلام ومائدة العشاء وسقوط العصفور وموت الرجل ، فليس لنا إلا أن نلجأ إلى مايسمى بالقضايا الذهنية المجردة . وهى قضايا خاوية خالية . ولا بد أن نقول إن الأشياء كلها مقدَّرة ومرتبط بعضها ببعض فى وحدة لاتنفصم من نظام عام من قوانين الطبيعة . ولكنا نفقد ، فى إبهام تلك القضية الذهنية ، كل رابطة أو حقيقة واقعية ؛ وهذه الأمور الواقعية هى كل مايعنينا من المسائل العملية .

العقل الإنسانى متحيز وجزئى بطبيعته . ولا يكون ذا مقدرة وكفاية إلا بتخيره ماينتبه إليه ، وبتركه كل ماعداه ، — بتضييقه وجهة نظره ، وإلا توزعت قوته الضئيلة وضل فى تفكيره . والذى يدعو المرء دائماً لأن يعمل لإرضاء غرائز حب الاستطلاع هو إرادة تحقيق بعض الأغراض الخاصة . فإذا كان الغرض العقاب فى مسئلة العصفور فإنه يكون من البلاهة أن تنتقل من القطط ، والغلمان ، وكل ما يمكن من فاعل آخر كان موجوداً فى الشارع قريباً من موطن الحادث ، لتختبر حالة القدامى من الكائنين وطريق المجرة ، فإن الغلام ، بهذا ، سوف ينجو . وفى حالة الرجل المنكود ، إذا ما أمعنا فى تدبر أسرار المائدة وما كان حولها من رجال ، ولم

نفكر فى الثلوج المتراكمة على الباب فنزيلها أو نضع عليها مقداراً من الرمال ، فإنه قد يمر عليها بعض من لم يتناول طعاماً خارج بيته قط من الرجال ، فتزل قدمه وتنكسر جمجمته أيضاً .

لذا كان من الضرورى لنا أن نحد من آرائنا . ونحن نعلم أن بعض الكميات المتناهية فى الصغر تهمل فى الحساب ، مثلا ، تحت ظروف خاصة ، فلا يقيم لها الحاسب وزنا . إنها موجودة فى نفسها ، ولكنها عديمة الجدوى من وجهة نظره الرياضية . كذلك العالم الفلكى ، فى بحثه حركات المد والجزر فى المحيطات ، لا يقدر حسابا للأمواج التى تثيرها الرياح أو توجدها السفن التى تمخر عبابها ليلاً ونهاراً بما تحمل من آلاف الأطنان . كذلك الرامى نحو الهدف ، حين يستعمل آلة الرمى ، يقدر حركات الرياح ، ولكنه لا يفكر فى حركة الأرض ولا فى الحركة الشمسية مع أنهما حق أيضاً . كذلك رجل الأعمال التجارية المحافظ على مواعيده وأوقاته ، قد يتجاهل تأخيراً قليلا كخمس دقائق مثلا ؛ بينما أن العالم الطبيعى ، فى مقياسه سرعة الضوء ، لابد أن يعتبر كل لحظة من ألف لحظة من الثانية .

وباختصار ، هنالك فى الطبيعة دوائر شتى من العمليات ، وفروع مختلفة مستقل بعضها عن بعض استقلالا نسبيا ، بحيث إن مايوجد فى أحدها فى لحظة ما قد يكون منسجما فى الوقت نفسه مع أية حالة توجد عليها الأشياء فى اللحظة التالية . فيظهر التعفن على وجه « البسكويت » فى مخزن طعام الجيش ، مثلا ، بقطع النظر عن الأمة صاحبة السفينة ، وبقطع النظر عن الناحية التى تقصد فى الرحلة ، وبقطع النظر عن الحالة الجوية ، وبقطع النظر عن القصص الإنسانية التى تمثل على السفينة ؛ وقد يبحثه

العـالم بفن الفطريات من غير التجاء إلى أى واحد من هـذه التفاصيل . وليس يقدر المرء على أن يحصر ذهنه فى الحقيقـة ليعلم شيئاً من طبيعتها إلا على هـذا النحو من البحث . ولـكن من ناحية أخرى ، إذاماشغل القائد نفسه بالبسكويت المتعفن ، أثناء انشغاله بمعركة بحرية ، فإنه غالباً مايخسر المعركة بسبب الإفراط فى الدقة العقلية .

لايمكن ربط الأسباب المؤثرة فى هـذه الدوائر الـكثيرة بعضها ببعض إلا من وجهة النظر العامة الشاملة للعالم كله . وكل مادون ذلك فى العموم من وجهات النظر يصح له أن يعتبر هذه الأسباب منفصلا بعضها عن بعض ، بل تلزمه الحـكمة بذلك.

وهـذا يقربنا من موضوعنا الخاص . إذا نظرنا إلى حيوان أو إلى إنسان ، قد تميز عن نوعه ببعض الصفات الخاصـة ، الخبيثة أو الطيبة ، فإننا يمكننا أن نميز الأسباب التى أوجدت تلك الصفات فيه من الأسباب التى أبقتها فيه بعد أن وجدت ، ويمكننا أن نرى أيضاً ، إذا ما كان قد وُلد مزوداً بتلك الصفات الخاصة ، أن هذين النوعين من الأسباب يرجعان إلى دائرتين مختلفتين غير مرتبط بعضهما ببعض . تلك حقيقة اكتشفها دارون ، وكان اكتشافه إياها وعمله على أساس اكتشافه هذا انتصاراً له وتجديداً منه . فبعد أن فصل دارون أسباب الإيجاد والإنتاج تحت عنوان «الاتجاه التلقائى نحو التميز والاختلاف» (Tendencies to spontaneous variation)، وأرجعها إلى دائرة فزيولوجية محضة ، وقرر أن يتجاهلها بالـكلية ، حصر انتباهه فى أسباب الحفظ ، وبحثها تحت عنوان «الانتقاء الطبيعى والانتقاء الجنسى» بحثاً شاملاً مستفيضاً ، واعتبرها وظائف لدائرة البيئة .

وقد حاول سابقو دارون من الفلاسفة أيضاً أن يبرهنوا على نظرية النشوء مع بعض التعديل ؛ ولـكنهم ارتـكبوا جميعاً تلك الهفوة من جمع النوعين من السببية فى

نوع واحد . إذ أنهم كانوا يرون أن مايحفظ على الحيوان صفاته الخاصة به ، إذا ماصح له أن يكون حيواناً نافعاً ، هو طبيعة البيئة التى تنسجم معها تلك الصفات الخاصة . فعاشت الزرافة بعنقها الطويل ، مثلا ، لأنه كان فى بيئتها أشجار طوال تتمكن هى من هضم أوراقها . ثم ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك وقالوا : إن مثل هذا الشجر لم يحفظ حياة حيوان ذى عنق طويل فحسب ولكنه أوجد ذلك الحيوان أيضاً . إنه جعل عنقه طويلاً بسبب ماأثاره فيه من محاولة دائمة ليصل إليه . وباختصار ، افترض هؤلاء الفلاسفة أن البيئة تضغط على الحيوان ضغطاً مباشراً فتكيفه تكييفاً مناسباً لها ، كما أن الختم يحول الشمع تحويلاً يجعله ينسجم مع صورته وشكله . ولقد ذكروا أمثلة كثيرة لذلك النحو من التغير الذى يجرى تحت أعيننا : فيعطى استعمال المطرقة اليد اليمنى قوة ، ولاتحس اليد المتعودة على المقذاف به كثيراً ، ويوسع هواء الجبال من الصدر ، ويصبح الثعلب الذى طُورد كثير الدهاء ، ويصبح الطير المطارد كثير الخوف ، وهكذا . وتسمى الآن هذه التغيرات ، التى يمكن اقتباس كثير منها ، بالتغيرات الموفقة . وقاعدة تلك التغيرات هى أن كل خاصية فى البيئة ، يتكيف بها الحيوان ، هى نفسها الموجدة لذلك التكيف . أو نقول مقتبسين عبارة سبنسر نفسه « تتلاءم الحالة النفسية مع سببها الفعال » .

كان أول عمل عمله دارون هو أن بين أن مقدار التغيرات التى تنشأ عن التكيف المباشر ليس له أهمية ما ، وإنما المهم هو التغيرات التى تنشأ عن الذرات الداخلية العارضة التى لا نعرف عنها شيئاً . وكان عمله التالى لذلك هو تحديد المشكلة التى سنواجهها نحن ونبحثها عند ما نتحدث عن تأثير البيئة المحسوسة فى الحيوان . وتلك المشكلة هى : هل الغالب أن تهلكه البيئة أو تحتفظ به بسبب هذه الخصوصية أو تلك الصفة التى ولدها ؟ وينبغى أن يلاحظ ، أولا ، أن دارون ، حين يسمى تلك الصفات

الخاصة التى يولد بها الحيوان « الاختلافات العرضية » ، لايعنى أنها ليست نتائج حتمية للقانون الطبيعى ؛ فنحن، إذا بحثنا القانون الكلى للعالم ، وأخذنا العالم جملة ، لايعترينا شك فى أن أسباب هـــذه الاختلافات ، والبيئة المشاهدة التى تبقى هذه الاختلافات أو تزيلها ، يرتبط بعضها ببعض . ولكن الذى يقصده دارون هو : بما أن البيئة شىء واضح معروف ، وبما أن علاقتها بالعضو فى إبقائها أو إهلاكها إياه أمر بين محسوس ، فإنه يكون من التشويش على قوتنا الإدراكية ومن التخييب لآمالنا العلمية أن نضم إليها حقائق من دائرة منفصلة عنها ، مثل تلك الدائرة التى وُجدت فيها الاختلافات . وتلك الدائرة الأخيرة هى دائرة الحادثات التى وجدت قبل ولادة الحيوان . وهى دائرة التأثيرات على بيضة المبيض وعلى الجراثيم المنوية ، التى يكمن فيها من الأسباب مايطرق هذه البويضات وتلك الجراثيم ويدفعها لتكون ذكراً أو أنثى ، ولتكون قوية أو ضعيفة ، صحيحة أو مريضة ، ولتكون مخالفة لشكل الآباء . فما هى ، إذن ، تلك الأسباب هناك ؟

إنها ، أولاً ، ذرية وغير مرئية ، وهى ، لهذا ، ليست خاضعة لأى نوع من أنواع الملاحظة . وتنسجم عملياتها ، ثانياً ، مع كل حالة ممكنة من حالات البيئة الاجتماعية والسياسية والطبيعية . فقد يلد الزوجان اللذان يعيشان فى نفس البيئة مرة غلاماً موهوباً ، وأخرى غلاماً أحمق أو عجيب الشكل غريباً . وليست الحالات الخارجية المحسوسة هى المحدد المباشر لتلك الدائرة ؛ وكلما أمعنا البحث فى الموضوع وجدنا أنفسنا مضطرين لأن نعتقد أن الشقيقين قد يختلفان لأسباب لاتنسجم مع كل مالها من نتائج ، ولا تبرر هذا الاختلاف .

لا يبدو الفرق الميكانيكى العظيم بين القوة المتعدية والقوة المفرغة واضحا فى مكان ما كما يبدو فى علم وظائف الأعضاء . كل الأسباب هنالك ، تقريباً ، قوى مفرغة ،

مهمتها إبراز الطاقة الموجودة هناك بالفعل . وينحصر عملها فى تهييج التوازن غير المستقر ؛ وتتوقف النتيجة على طبيعة المواد المهيَّجة أكثر من توقفها على المثيرات الخاصة التى تثيرها . فإذا ماأجريت ، مثلا ، تجارب غلوانية (Galvanic Work)[1] مساوية لوحدة على عصب ضفدع فإنها سوف تفرغ من المضلة التى ينتمى إليها العصب قوة ميكانيكية توازى سبعين ألفاً من الوحدات ؛ وتوجد نفس النتيجة إذا استعملت مهيجات أخرى غير مهيجات Galvani . ليس للمهيج عمل هنا أكثر من بدء أو تحريك لشىء ما ، ويظل ذلك الشىء بعد ذلك متحركا بنفسه ، كما أن عود الثقاب يشعل النار فحسب ، ثم تحترق المدينة بعد ذلك بنفسها . وقد لاتكون النتيجة كذلك متناسبة مع سببها الفعال كيفية ، كما أنها قد لاتتناسب معه كمية . وإنا لنجد من تلك الحالة كثيراً فى المواد العضوية . فلقد تحير الكيمائيون فى دراساتهم من الصعوبات التى يواجهونها من عدم استقرار المركبات الأليودية Albuminoid. فقد يوضع نموذجان منها فى حالات تبدو متشابهة كل التشابه ، ولكنهما ، على الرغم من ذلك، يتصرفان تصرفات مختلفة . ولاشك أنكم تعلمون شيئاً عن عمليات التخمر، وتعلمون كيف أن مصير اللبن فى وعائه ـ سواء أتحول إلى خثرة حامضة أو إلى كتلة من الكيموس ـ يتوقف على مايوجد أولاً من حمض التخمير اللبنى أو من الحمض الكحولى ، ويسبق الآخر فى عمله . فعند ما تكون النتيجة ميلاً من بيضة المبيض للاتجاه نحو هذه الناحية أو تلك فى مراحل تطورها ، ـ لتبرز فى الوجود نابغة أو أحمق ، ـ أفلا يكون من الواضح أن سبب هذا الميل لابد أن يكون موجوداً فى دائرة

---

(١) نسبة إلى ذلك العالم الإيطالى Luigi Galvani ، الذى ولد فى القرن الثامن عشر ١٧٣٧ ، والذى كان مشتغلا بعلم وظائف الأعضاء ، وكانت له بحوث حول الكهربائية الحيوانية ؛ وكانت أعماله فى جملتها تجارب على ضفادع . وفى عام ١٧٩١ ، أخرج كتابا حول « القوة الكهربائية فى الحركات العضلية » ، وبذا كان أحد المهدين لعلم الكهرباء .

بعيدة ودقيقة ، ولا بد أن يكون متناهيا فى الصغر مع إحكام فى النظام ودقة ، بحيث إن الوهم والخيال لا ينجحان فى محاولة تكوين صورة له ؟

فما دام الأمر كذلك ، ألم يكن دارون على حق فى إهمال تلك الدائرة كلها ، وفى الاحتفاظ بمشكلته مبرأة من الاتصال بمثل هذه الموضوعات ؟ إن نجاحه فى مجهوده لجواب إيجابى كاف على هذا السؤال .

وذاك يوصلنا إلى صميم موضوعنا . توجد أسباب وجود العظماء من الرجال فى دائرة لا يمكن أن يصل إليها الفيلسوف الاجتماعى . فلا بد له من أن يقبل النبوغ حقيقة واقعية ، كما فعل دارون بالنسبة للاختلافات الطبيعية . وليست المشكلة عنده وعند دارون إلا : كيف تؤثر هذه الحقائق فى البيئة بعد وجودها وكيف تؤثر فيها البيئة ؟ وإننى أرى أن علاقة البيئة المشاهدة بالرجل العظيم هى فى جوهرها مثل علاقتها فى فلسفة دارون بالاختلافات . فهى إما إن تقبله ، وإما أن ترفضه ، إما أن تحتفظ به وإما أن تهلكه ، وباختصار هى تنتقيه[1] . وعند ماتقبل ذلك العظيم وتحتفظ به ، فإنها تتغير به على نحو جديد خاص . إنه يعمل كمخمر فيها فيغير من طبيعتها ؛ كما أن ظهور نوع جديد من الحيوانات فى بقعة ما يغير من التوازن الحيوانى والنباتى فيها . وكلنا ، لا شك ، يذكر عبارة دارون الشهيرة حول تأثير القطط فى نبات البرسيم فى البقاع المجاورة . ولقد قرأنا كثيراً حول تأثير الأرنب الأوروبى فى نيوزيلاندا ، وساهم كثير منا فى الجدل حول عصافير انجلترا هنا (الزرازير) ، — أهى تقتل الأساريع ، أم تطرد أكثر الطيور المحلية ؟ وهكذا الرجل العظيم ، — سواء

---

(١) إنه لحق أنها تهذبه وتغير منه لحد ما بأثرها الثقافى ، ويكون هذا ناحية مهمة من المفارقة بين الحالة الاجتماعية والحالة الزيولوجية . ولقد أهملت تلك الناحية من العلاقة ، لأن الناحية الأخرى أكثر منها أهمية . وسأرجع إليها عرضا قبيل الفراغ من هذا المقال .

أكان وارداً من الخارج مثل كلايف Clive [1] فى الهند وأجاسيز Agassiz هنا ، أم ناشئا من البقعة نفسها مثل محمد [2] وفرانكلين Franklin [3] ، ـ يوجد نوع من التنظيم الجديد ، فى دائرة محدودة أو واسعة ، فى العلاقات الاجتماعية التى كانت موجودة بالفعل .

تغيرات الجماعات من جيل إلى جيل ، إذن ، نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لأفعال الرجال ولمثل الأفراد الذين انسجم نبوغهم مع حاجات اللحظة التى وجدوا فيها ، أو الذين كان لهم من السلطان ما سمح لهم بأن يكونوا مخمرين ، ومبتدئين لحركات جديدة ، ومقررين لقواعد أو لنماذج جديدة ، أو كانوا من المفسدين ، أو من المبيدين لبعض من الأفراد الآخرين ، الذين لو كان لهم من الأمر شىء للعبت مواهبهم دوراً مهما فى قيادة الجماعة إلى طريق مخالف لطريقهم .

نحن نرى حولنا أمثلة شتى من قوة ابتكار الأفراد هذه فى دائرة ضيقة محدودة ، ونراها فى دائرة واسعة فى حالة قادة التاريخ . وليس هذا إلا رجوعا لتلك القاعدة العامة المأثورة عن ليل ودارون وهوتنى Whitney من شرح المجهول بالمعلوم ومن جمع ما يمكن أن نلاحظه فحسب من أسباب التغير الاجتماعى . والجماعات مثل الأفراد سواء بسواء ، فى أن فى كل منهما صلاحية مبهمة للتطور والتقدم . فيتردد الشاب : أيدخل فى الأعمال التجارية أم ينتظم فى سلك الحكومة ؛ ويتوقف جوابه على هذا

---

(١) هو جندى بريطانى ، ولد فى القرن الثامن عشر سنة ١٧٢٥ . ولقد اكتسبت شهرته العظيمة من حروبه فى الهند . فقد قاد معارك جمة هناك ، كان النصر حليفه فيها كلها ، وبذا وطد دعائم الحكم البريطانى هناك . وأخيراً مات منتحرا فى الهند عام ١٧٧٤ .

(٢) يعنى به الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم .

(٣) هو بنيامين فرانكلين السياسى الأمريكى الذى عاش فى القرن الثامن عشر ؛ وكان له مجهود كبير فى الحركة التى أدت إلى استقلال الولايات المتحدة ؛ وله مجهود كبير أيضا فى وضع دستورها . وكان معنيا كذلك بالبحوث العلمية ، وخاصة البحوث الكهربائية . وهو الذى اخترع موصل الصاعقة (Lightning conductor)

السؤال على ما يقرره قبل مجيء فترة معينة من الزمن . فإذا ما قبل عملا تجاريا فقد تحدد الجواب . وبالتدريج ، لا يمكن أن تعتبر العادات والمعارف فى إدارة الأعمال الأخرى ، التى كانت يوما ما قاب قوسين منه أو أدنى ، حتى من الأمور الممكنة له . قد يتردد هذا الشاب فى المبدأ متسائلا : ألم تكن الحالة التى ازدراها وطردها ساعة القرار خير الحالتين ؟ ولكن بعد مرور فترة من الزمن تموت مثل هذه الشكوك ، وتذبل الصورة القديمة للنفس ، التى كانت يوما ما فى غاية النضارة والازدهار ، بل تصبح شيئا أقل من الأحلام. ولا يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالأمم. فقد يقودها ملوكها ووزراؤها إلى الحرب أو إلى السلم ، وقوادها إلى النصر أو إلى الهزيمة ، وأنبياؤها إلى هذا الدين أو إلى ذاك ، وتقودها أنواع النبوغ المختلفة إلى الشهرة فى الفنون ، أو فى العلوم ، أو فى الصناعات. ولا شك أن الحرب متشعّب حقيق لكثير من الممكنات فى المستقبل . وسواء أكانت نتيجتها انتصاراً أم انهزاما ، فإن إعلانها لا بد أن يكون مبدأ لسياسة جديدة . وهكذا الثورة ، أو أية حادثة عظيمة ، تصبح سبباً موجّهاً يزيد مفعوله على مر الأيام . ولاشك كذلك فى أن الجماعات تخضع لمثلها وكل نجاح ، ولو كان عرضيا ، يقرر تلك المثل ويؤكدها ، كما أن الإخفاق يضعفها ويبطلها.

هل كان يمكن أن يكون لانجلترا اليوم ذلك النظام الإمبراطورى الذى يتحكم الآن فيها ، إذا كان الغلام المسمى كلايف Clive قد انتحر وهو صغير ، كما فعل ذلك بعد فى مدراس ؟ وهل كان يمكن أن تكون ذلك الرمث العائم التى هى عليه الآن فى كل المسائل الأوروبية ، إذا كان فريدريك Fredrick الأكبر قد ورث عرشها بدل فيكتوريا Victoria ، أو كان كل من بنثام Bentham ، ومل Mill ، وكوبدن Cobden[1] قد ولد فى روسيا ؟. ولو كان بسمارك Bismarck قد مات فى مهده ، لظل الألمان مقتنعين

(١) هم من علماء انجلترا الممتازين الذين اشتهروا بنظرياتهم الأخلاقية والسياسية .

بأنهم رجال زراعة وفنون ، ولظلوا فى نظر الشعب الفرنسى قوما دمث الأخلاق مهذبين ، أو بسطاء موسيقيين . ولكن إرادة بسمارك جعلتهم يعجبون من أنفسهم حين رأوا أنهم يقدرون على أعمال أخرى أكثر حيوية من هذه الأعمال . ذلك درس سوف لا ينساه العالم أبداً . وقد تخضع ألمانيا لكثير من التقلبات ، ولكنها سوف لا تمحو أبداً تلك الآثار التى وجدت من قبل؛ وهى تلك الآثار التى كانت نتيجة لابتكار بسمارك ، أعنى ما بين ١٨٦٠ و ١٨٧٣ .

لا بد أن يُعتبر تأثير النوابغ ، على الأقل، عنصراً من عناصر التغيرات التى تكوّن التطور الاجتماعى . وتطور الجماعات يكون على أنحاء شتى ؛ والمحدد للطريق الذى سوف تتطور فيه الجماعات هو الوجود العرضى لهذا المخمر أو لذاك . فطيور الغابات ، كالببغاء ، مثلا ، تقدر أن تحاكى الإنسان فى النطق ، ولكنها لا تقدر أن تبدأه بنفسها ، ولا بد أن يكون هناك من يعلمها . وهكذا الشأن معنا نحن الأفراد . فيعلمنا Rembrandt[1] كيف نتمتع بكفاح الضوء مع الظلام؛ ويعلمنا واجنر Wagner[2] كيف نتمتع ببعض الآثار الموسيقية الخاصة . وأما ديكينز Dickens فإنه يوجه ضربته نحو عواطفنا ؛ ويوجهها A. Word إلى أذواقنا؛ وأما إميرسون Emerson[3] فيشعل فينا نوعا من الضياء الخلق . ولكن ما دام هذا حقاً بالنسبة لكل فرد فرد من الجماعة ، فكيف لا يكون حقا بالنسبة للجماعة كلها ؟ إذ أن الجماعة قد تتخذ ما يبين لها من طرق ، فإذا لم تجد من يبين لها الطريق فسوف لا تجده أبداً . ولكن،

---

(١) هو ذلك المصور الهولندى الشهير الذى عاش فى القرن السابع عشر ، ولا يزال يوجد من رسومه وصوره وزخارفه الشىء الكثير .

(٢) هو من نوابغ علماء ألمانيا فى الموسيقى فى القرن التاسع عشر .

(٣) تلك كلها أسماء لرجال من رجال الإصلاح الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر . وكان ديكينز انجليزيا ، وكان الآخران من أمريكا .

غالبا ما تكون هذه الطرق غير محدودة ؛ ويرجع هذا إلى تعدد النوابغ الذين يرسمونها، فتتبع الجماعات هذا أو ذاك ، كما ينحاز الفرد لهذا العمل أو لذلك .

ولكن ليس هذا اللاتحديد فى الطرق لا تحديداً مطلقا ، فليس كل رجل يناسب كل حادثة ؛ وبذا أمكن أن يوجد أحيانا شيء من عدم الانسجام بين النابغة والبيئة. فقد يظهر النابغة قبل أوانه ، وقد يأتى متأخرا عنه ؛ وفى الحالين لا يكون له الأثر المرجو . فلو وجد الآن بطرس الزاهد (Peter the Hermit) ، مثلا ، لأرسل إلى بيت المجانين ؛ ولو عاش « مِل » فى القرن العاشر لعاش مجهولا ولمات مجهولا كذلك . ولقد احتاج كل من نابليون وكرومول (Cromwell)[1] إلى الثورة؛ واحتاج Grant إلى الحرب الأهلية ؛ ولا يكون لواحد من أجاكس (Ajax)[2] شهرة فى زمن البنادق ذات التليسكوب ؛ أو ، لنستعمل مثلا استعمله سبنسر نفسه ولكن فى ثوب آخر ، ماهو الأثر الذى كان يمكن أن يتركه وات (Watt)[3] بين جماعة لم تعلمها المهارة صهر الحديد أو إدارة المخرطة ؟

والذى ينبغى أن يلاحظ الآن هو أن الذى يجعل بعض النبغاء غير منسجم مع بيئته ليس ، فى الغالب ، إلا أن البيئة قد تكيفت من قبل بفعل نابغة آخر تكيفاً لا يمكن

---

(١) هو ذلك الجندى البريطانى الذى عاش فى القرن السابع عشر ، والذى نهضت به همته ، وارتفت به من ذلك المستوى العادى حتى أوصلته إلى أكبر ما يطمح إليه أمثاله . إذ وصل بمجهوده إلى عرش انجلترا ، فأصبح حاكمها المطلق . وكان له فى السياسة ، وخاصة الخارجية منها ، باع طويل .

(٢) هذا اسم لبطلين خرافيين من أبطال الإغريق .

(٣) مخترع انكليزى ، عاش فى القرن الثامن عشر ، ويرجع إليه الفضل فى كثير من التطورات التى حدثت فى الآلات البخارية .

أن تقبل معه كيفا آخر . فلا يمكن أن يكون هناك مكان لبطرس الزاهد بعد فولتير (Voltaire) ، ولا يمكن أن تصبح البروتستانتية مذهبا عاما فى فرنسا بعد شارل (Charles) التاسع ولوى (Louis) الرابع عشر ؛ وليس نجاح بيكونسفيلد (Beaconsfield) بعد مدرسة مانشستر إلا نجاحا مؤقتا ، ولم يتقدم كاسلر (Casteler) بعد فيليب (Philip) الثانى إلا قليلا . وهكذا ، عند كل متشعب ، تنتقى بعض جوانب الموضوع ، وتقل الطرق الممكنة فى المستقبل . ويقول كليفورد (Clifford) : «من خصائص الكائنات الحية أنها لا تتغير بسبب ما جاورها من ظروف فحسب ، ولكنها تحتفظ مع ذلك بكل ما يحدث فيها من تغيير ، وكأنها تحوله إلى شىء عضوى يعمل مع سائر الأعضاء الأخرى ليوجد أفعالا وآثارا جديدة فى المستقبل . فإذا أحدثت تشويها فى شجرة نامية وأوجدت فيها اعوجاجاً ، فإن كل مجهود ، تبذله بعد ذلك ليقوّم من هذا الإعوجاج ، مجهود ضائع لا يمحو أثر ذلك التشويه ، لأنه أصبح جزءاً من طبيعة الشجرة . ولكن ، افترض الآن أنك أخذت قطعة من الذهب وصهرتها ثم تركتها تبرد .. أفيقدر إنسان من مجرد اختباره لها ، أن يحدد عدد المرات التى صهرت فيها فى العصور الجيولوجية بيد الإنسان ؛ بل ، أيقدر أن يخبر بعدد المرات التى صُهرت فيها فى العام المنصرم ؟ وأما من يقطع شجرة من شجر البلوط فإنه يقدر أن يعرف عدد ما مر عليها من السنين ، بعَدّ ما فى جذعها من ثنايا ومقاطع ؛ وباختصار ، يمكن أن نقول: لا يتضمن الكائن الحى تاريخ وجوده فحسب ، بل يتضمن بالضرورة تاريخ وجود أسلافه كذلك . والجماعة كائن حى ، فتخضع لمثل تلك القاعدة .

كل رسام يعلم أن إضافة أى خط إلى رسمه تغير من معالمه ، وأن كل ما يأتى أو ينشأ من اتجاهات بعد ذلك فهو مترتب على الخطوط القليلة التى رسمت أولا . وكل من يحاول

من الكتاب أن يغير ما كتبه فى موضوع ما يحس بأنه من المتعذر عليه أن يستعمل نفس العبارات التى كتبها أولاً . إذ أن الابتداء الجديد يتفى إمكانية استعمال الجمل الأولى والتركيبات الأولى ، ويفتح باباً جديداً لتراكيب وجمل غير محدودة ، ولكن ليس منها ما هو ضرورى أو لازم الاستعمال . وهكذا الشأن بالنسبة للبيئة الاجتماعية: فلا تسمح البيئة الغابرة والحاضرة للجماعة بقبول بعض مايقدمه الأفراد ، ولكنها لاتحدد تحديداً إيجابياً نوع الإضافات الفردية التى سوف تقبلها ، لأنها فى نفسها عاجزة عن أن تحدد طبيعة ماسيقدمه الأفراد .

فالتطور الاجتماعى نتيجة لتفاعل عنصرين متمايزين تمام التمايز . فالعنصر الأول هو الفرد الذى يستمد مواهبه الخاصة من فعل قوى فسيولوجية وأخرى اجتماعية ، وإن كان يحمل قوى الاختراع والابتكار فى يديه؛ والعنصر الثانى هو البيئة الاجتماعية مع مالها من قدرة على أن تقبله هو ومواهبه أو أن ترفضهما . وكلا العنصرين ضرورى للتغير . فتجمد الجماعة إذا لم تكن هناك دوافع فردية ، وتموت الدوافع الفردية إذا لم تعطف عليها الجماعة .

كل هذا يبدو سليما . وكل من يحب أن يرى هذا الموضوع متطوراً وبالغاً أشده بجهود بعض النابغين ، فليقرأ ذلك العمل القيم الذى قام به Bagehot[1] فى علوم الطبيعة والنظريات السياسية ، فلقد أبرز هناك صورة حية واضحة للكيفية التى تنمو بها الأشياء الواقعية وتتغير . ولقد وجدت دائماً عقليات ظهرت لها تلك الآراء شخصية صغيرة ، ومرتبطة بما قتل بحثاً من الانثروبومورفى[2] فى نواحى أخرى من موضوعات

---

(١) هو كاتب انجليزى من كتاب القرن التاسع عشر .

(٢) Anthropomorphy هو وصف الإله بما للانسان من صفات مادية ، ونسبة الميول والانفعالات الإنسانية إليه .

المعرفة. يرى هؤلاء الأفراد «أن الفرد يذبل ويذوى ، وأما العالم ففى اطراد وازدياد». وكلنا يعلم كيف أن العالم أصبح فى نظر كل من بوكل ودريبر (Draper و Buckle) مساوياً لقطر أو إقليم . ونعلم أيضاً كيف استمر الجدل بين المتعصبين لعلم التاريخ وبين هؤلاء الذين ينكرون وجود أى قانون من القوانين الضرورية المتعلقة بمصالح الجماعة الإنسانية . ويهاجم سبنسر فى مبدأ بحوثه الاجتماعية « نظرية الرجل العظيم » فى التاريخ فى رسالة ، نقتبس منها هذه العبارات :

« من الهين أن يعتقد أن عظماء الرجال هم الذين يبنون الجماعات ، مادام هناك اعتماد على الفكر العامة ، من غير طلب للتفاصيل . ولكن إذا أردنا أفكاراً واضحة محدودة، ولم يرضنا الإبهام والغموض ، فإنا نتبيّن أن تلك الفرضية غير معقولة . فإذا لم نقف ، فى شرحنا للتقدم الاجتماعى، عند الرجل العظيم، بل ذهبنا أبعد منه وسألنا من أين أتى ذلك الرجل العظيم ؟ فإنا نجد أن النظرية تخفق كل الإخفاق . إذ يمكن أن يجاب عن هذا السؤال بأحد جوابين : أولهما أن للرجل العظيم منشأ أرق من المنشأ الطبيعى، وثانيهما أن منشأه طبيعى . فإذا تمسكنا بالأول وقلنا إن له منشأ غير طبيعى ، للزمنا أن نقول إنه إله أو نائب عنه ، ولكنا كنا قد أبطلنا إمكان تعدد الآلهة (Theocracy). وإذا لم يكن هذا جواباً مقبولاً ، وذهبنا إلى القول بأن منشأه طبيعى ، فلا بد أن يكون ، ككل الظواهر الأخرى فى الجماعة ، نتيجة لما سبقه من مقدمات ، ولا بد ألاَّ يشذ عن العصر الذى هو جزء منه صغير ، ولا يختلف عما فى هذا العصر من نظم وعادات ومن لغات ومعارف وصفات ، ومن فنون وعلوم ، فى أن كلا منها نتيجة لما سبقه من حوادث : فلا بد أن نعترف بأن أصول الرجل العظيم تتوقف على سلسلة طويلة من مؤثرات متعددة أنتجت الجنس الذى هو فرد منه وأنتجت الحالة الاجتماعية التى نشأ فيها ذلك الجنس . وبعبارة أخرى إن الجماعة تكونه قبل محاولته أن يكونها.

وكل التغيرات، التى قد يظن أنه هو سببها القريب ، قد وجدت أسبابها الحقيقية فى العصور التى نشأ هو عنهـا . فإذا ما أريد شرح حقيق لهذه التغيرات ، فلا بد من البحث عن أسبابها فى مجموعة الحالات التى أوجدته هو وإياها »[1] .

ولـكن أليس هناك كثير من التسرع فى رمى آراء هؤلاء ، الذين يعتقدون أن للنابغة قدرة على الابتـكار والتجديد ، بالغموض والإبهام ؟

افترضوا أننى أقول إن الاعتـدال فى الجدل الدينى والاجتماعى والسياسى ، الذى تمتازبه اليوم انجلترا ، ويجعلها تخالف الوضع الذى كانت عليه من ستين عاماً مضت ، هو ، إلى حد كبير ، أثر لما ضربه «مل» من مثل . قد أكون مخطئاً فى حكمى هذا ؛ ولـكننى ، على كل حال ، متحدث عن مسائل خاصة ، ولست معتمداً على الفـكر العامة ؛ وإذا ماقال سبنسر إن هذا الاعتدال لم ينشأ عن أسباب فردية ولـكن عن مجموعة الحالات والعصور التى نشأ عنها «مل» وكل من عاصره ، أو باختصار ، عن كل النظم الغابرة للطبيعة ، فإنه يكون هو الشخص الذى يرضى بالغموض والإبهام .

إن قاعدة عـلم الاجتماع التى يستعملها سبنسر هى ، فى الحقيقة ، مثل قاعدة من يلجأ إلى منطقة البروج ليعلل قتل العصفور وإلى الثلاثة عشر رجلاً على الخوان ليعلل موت الرجل ، وليس لها من قيمة علمية أكثر من قيمة تلك القاعدة الشرقية ، التى تُستعمل للإجابة عن كل سؤال مهما كان شأنه ، من النطق بتلك العبارة الحقة « الله قادر » . ولقد أصبح عدم الالتجاء إلى الإله عندنا نحن الغربيين فى كل مسئلة يمكن أن يوجد لها سبب قريب أمارة على القدرة العقلية .

إن اعتقاد أن سبب كل شىء يمكن أن يوجد فيما سبقه من حادثات هو البداية،

---

(1) Study of sociology, Pages 33-35.

وهو الفرض الأولى ، ولـكنه ليس الغرض النهائى للعلم . وإذا لم يقدر العلم أن يخرجنا من التيه إلا من نفس الثقب الذى دخلنا منه ، بعـد مجهود ثلاثة آلاف أو أربعـة آلاف عام ، فإنه لايكاد يساوى ما بذلنا من مجهود فى تتبعه فى حالك الليالى والأيام . وإذا كان هناك يقين ما ، فهذا القدر يقينى حسب الطاقة الإنسانية : وهو أن الجماعة لاتقدر أن تصنع الرجل العظيم قبل أن يكون هو قادراً على تـكييفها . إن الذى يصنعه هو القوى الفسيولوجية ؛ وأما الحالات الاجتماعية ، والسياسية ، والجغرافية ، ولحد كبير الحالات الانثروبولوجية، فليس لها من الدخل فى تكييفه إلا بمقدار ارتباط حالات فوهة بركان فيزوف باضطراب ذلك الغاز الذى أكتب الآن تحت ضوئه . فهل يعنى سبنسر أن أنواع الضغط الاجتماعى التقت كلها وأثرت فى Stratford)[1] (on-Avon حوالى السادس والعشرين من شهر إبريل سنة ١٥٦٤ لتوجد شـكسبير (Shakespeare) مع كل مميزاته العقلية ، كما أن قوة الضغط على الماء التى يسببها الزورق توجد تياراً معيناً يجرى إلى بركة خاصة ؟ وهل يريد أن يقول إنه إذا كان شكسبير قد مات فى مهده بالطاعون ، فإنه كان لابد لامرأة أخرى من Stratford) (on-Avon أن تلد شبيهاً له ليحفظ بذلك التوازن الاجتماعى ؟ أو هل كان يمكن أن يظهر البديل فى (Stratford-atte-Bawe) ؟ إنه ليس من الهين هنا ، كما أنه ليس من الهيّن فى أى مكان آخر ، أن تعرف ما الذى يقصده سبنسر .

ولـكن مريده جرانت ألّن (Grant Allen) لايتركنا فى شك فيما يتعلق بمقصده الحقيق . فقد أذاع هـــذا الـكاتب الألمعى مقالين فى العام الماضى فى مجلة جنتلمان (Gentleman) ، أبان فيهما أنه ليس للفرد أثر ما فى تكييف التغير الاجتماعى ، فقال :

---

(١) البلد التى ولد فيها شـكسبير .

« لا تتوقف الفروق بين أمة وأخرى فى القوى العقليـة ، وفى التجارة ، وفى الفنون ، وفى الأخلاق ، وفى الصفات العامة ، على أى معنى خفى فى العنصر ، أو فى الأمة ، أو على أى شىء آخر غير معروف ، أو على أى معنى عام غير مدرك أو واضح ، ولـكنها تتوقف على الظروف المادية التى تتعرض لها الأمم . وإذا كان حقاً ، كما نعرف جميعاً ، أن الشعب الفرنسى يختلف اختلافاً بيناً عن الشعب الصينى ، وإذا كان عالَم هامبورج يختلف عن عالَم تيمبوكتو ، فليس ذلك الاختلاف الواضح إلا نتيجة لعمل البيئـة الجغرافية . فإذا كانت الجماعة التى ذهبت إلى هامبورج قد استوطنت تيمبوكتو ، فإنه كان يكون من العسير تمييزهم الآن عن هؤلاء الزنوج الهمجيين[1] . وإذا كانت جماعة تيمبوكتو قد استوطنت هامبورج ، فإنهم كانوا يكونون الآن بيض الجلود وتجاراً فى المرافىء العامرة . فلا بد أن يبحث عن أسباب المفارقة فى الصفات الجغرافية الثابتة للأرض وللبحار : — فهذه هى التى صاغت بالضرورة أخلاق كل شعب على وجه البسيطة وتاريخه ؛ ولا يمكننا أن نعتبر أى شعب عنصراً فعالاً فى تميز نفسه عن الشعوب الأخرى . إن الحالات المجاورة هى التى توجد هـذا الأثر (تنفى هاتان الجملتان وجود أسباب فسيولوجية مستقلة ولو استقلالا نسبيا) ، وافتراضك غير هـذا يؤدى إلى القول بأن عقل الإنسان مستثنى من القانون العام للسببية والمسببية . والواقع أنه ليس هناك من شذوذ ، ولا من دوافع شخصية فى

---

(١) لا ! حتى ولو كانا أخوين لحما ودما ! فإن العنصر الجغرافى يختفى كليـة أمام عنصر الوراثة . ولاأهمية للمفارقة الجغرافية بين جماعتين عند ما تقارن بالمفارقة الطبيعية بين أسلاف جماعتين من الجماعات ، حتى ولو كانت هـذه المفارقة غير واضحة للعين المجردة ، كما هو الشأن فى التوأمين. ولا يمكن أن يكون فردان من جماعات متشابهة متحدين بحيث ينتجان نسباً واحداً إذا ما وضعا فى بيئة واحدة . إذ أن أقل فرق بينهما فى المبدأ لابد أن يزيد ويتسع جيلا بعـد جيل حتى ينتهى بفروق مختلفة كل الاختلاف . « جس » .

المحاولات الإنسانية . فليس الذوق نفسه وليست الميول كلها إلا نتائج للعناصر المحيطة » .[١]

ويقول ألّن فى موضع آخر عند تحدثه عن الثقافة اليونانية :ـ

« إنها كانت نتيجة مطلقة للبيئة الجغرافية الهيلانية فى تأثيرها على العقل الآرى الفطرى ... وإنه يبدو لى أمراً بدهياً أنه ليس هناك ما يمكن أن يميز جماعة من الرجال عن آخرين ، إلا ما يوجدون فيه من حالات مادية ، ـ وتدخل ضمن تلك الحالات المادية طبعاً العلاقات الزمانية والمكانية التى تربطهم بالجماعات الأخرى . وافتراضك غير هـذا يستلزم منك إنكارا لقوانين السببية الأولية ، وظنك أن العقل يمكنه أن يميز نفسه عن غيره ليس له من معنى إلا تصور أنه يمكن أن يتميز بلا سبب[٢] » .

تلك الصرخة حول إبطال قانون السببية العام ، التى نسمع منها كثيراً حين نأبى أن نقبل ذلك النوع من السببية ، الذى يقدمه لنا بعض المدارس ، كفيلة بأن تجعل المرء يفقد ما عنده من صبر . ألاَ يتصور هؤلاء الكتاب حالات أخرى ؟ أليس لديهم من حد وسط بين المعجزة والبيئة الطبيعية ؟

إذا كان ألّن يقصد « بالحالات المادية » تلك الدائرة المحسوسة من الطبيعة ومن الإنسان ، فإن حكمه يكون خطأ من ناحية فزيولوجية ، لأن عقلية الجماعة تغير من نفسها كلما وجد بينها أحد النوابغ ، بفعل بعض الأسباب التى تؤثر فى الجزء غير المرئى من الدائرة الذرية . ولـكن إذا عنى بها « كل الطبيعة » ، فإن حكمه ، على الرغم من صحته ، لا يكون إلا مثل الاعتقاد الغامض فى قدر وقضاء شامل ، الذى لا ينبغى أن يأخذ به شخص مثقف أو عالم .

---

(١) مقال (Nation Making) فى مجلة (Gentleman) ١٧٧٨ .

(٢) مقال (Helas) فى مجلة (Gentleman) ١٨٧٨ .

وكيف يخفق عالم مثل ألِّن ، ولا يفرق فى هـــذه الناحية بين الشرط الضرورى لإنتاج النتيجة وبين الشرط الذى يكفى لإنتاجها ؟ يقول المثل الفرنسى إذا أردت عمل العُجَّة فلا بد من أن تكسر البيض ، يعنى أن كسر البيض شرط ضرورى لعمل العجة . ولكن هل هو شرط كاف ؟ هل تظهر العجة عند ما نكسر ثلاث بيضات أوأربعا منها ؟ هكذا الشأن بالنسبة للعقلية اليونانية . فقد يكون الاتصال التجارى بالعالم الخارجى ، الذى سببه مركز هيلاس الجغرافى ، شرطا ضروريا فى تكوين تلك العقلية البحاثة . ولكن إذا كان مع ذلك شرطا كافيا ، فلماذا لم يسبق الفينيقيون اليونان فى العقلية ؟ لا يمكن أن تنتج البيئة الجغرافية نوعا معينا من العقلية . وليس للبيئة الجغرافية من أثر إلا فى تربية ما وجـــد فعلا من العقليات وتغذيتها ، أو فى عوقها وإفسادها ، فليست عمليتها إلا عملية انتقاء واختيار ، ولا تحدد ماسيوجد من الأنواع إلا بإبادة ما لا يصلح منها . فعادات الإهمال والكسل ، مثلا ، لا تتناسب مع البيئات الشمالية ؛ ولكن هل يجمع سكان هـذه المناطق بين عادتهم من حسن التدبير وبين هدوء الأسكيمو (Eskimo) ، أو بينها وبين ميول نورسمان (Norsman) نحو الخصام والحروب ، فذلك ، فيما يتعلق بالقطر الجغرافى ، أمر عرضى . ولا بد لأرباب مذهب التطور من تذكر أن لنا خمسا من الأصابع ، لا لأن أربعاً منها أو ستاً كانت لاتؤدى الغرض ، ولكن لأنه اتفق أن أول حيوان فقرى أعلى من السمك كان له ذلك العدد من الأصابع . إنه ، فى نجاحه فى تكوين سلسلة متصلة من النسب ، مدين لبعض صفات أخرى ، ـ لاندرى ماهى ـ ، ولكنه احتفظ بأصابعه الخمس حتى اليوم . وهكذا الشأن بالنسبة لكثير من الصفات الاجتماعية . وأما ماهى تلك الصفات ، التى سوف تستدعيها الصفات الضرورية لبقاء البيئة ثم تستبقيها ، فذلك يرجع إلى العوارض الفزيولوجية التى سوف يتفق حصولها بين الأفراد . ويَعِد ألِّن بأنه سيبرهن على نظريته بأمثلة

مستقاة من الصين ، والهند ، وانجلترا ، وروما ، وغيرها . ولكنى لا أشك فى أنه سوف لا يفعل مع هذه الأمثلة أكثر مما فعله مع هيلاس. إنه سيظهر فى الميدان بعد وجود الحادثات فعلا ، ويقول إن الصفات التى احتفظ بهـا كل شعب كانت منسجمة مع عاداته . ولكنه سيخفق بلا مراء فى تبيين أن كل حالة من حالات الانسجام الملتجأ إليها كانت هى الحالة الضرورية والهيئة الممكنة لذلك الشعب .

يدرك علماء الطبيعة تمام الإدراك أن الإنسجام بين الحيوانات الإقليمية وما تعيش فيـه من بيئات غير محدود ولا معين . فقد يُصلح الحيوان من فرص وجوده بواحد من طرق شتى ، — فقد ينمو مائياً ، وقد يعترش الأشجار ، أو يقطن تحت الأرض ؛ وقد يكون صـغير الحجم سريع الحركة ، أو بطيئاً بدينا ؛ وقد يكون ذا فقرات شوكية ، أوذاقرون؛ وقد يكون مخاطياً ، أو ساماً ؛ وقد يكون خجلا هلوعا ، أو شرساً مفترساً ؛ وقد يكون داهية أو خصباً فى الإنتاج ؛ وقد يكون محبا للاجتماع ألوفا ، أو ميالا للوحدة والعزلة ؛ وقد يكون على أنحاء أخرى بجانب هـذه ، — وقد يناسبه كل واحد من هذه فى بيئات متخالفة كل التخالف .

ولا شك أن قراء والاس يتذكرون أمثلة واضحة من هذا القبيل فى كتابه المسمى « أرخبيل الملايا » Malay Archipelago ، حين يقول : —

« لا تشبه بورنيو غينيا الجديدة فى كبر الحجم والخلو من البراكين فحسب ، ولكن تشبهها أيضا فى التعدد فى طبيعتها الجغرافية ، وفى عدم التقلب فى جوها ، وفى المظهر العام لخضروات الغابات التى تغطى وجهها ؛ وأما ملقا فهى صنو الفيليبين فى طبيعتها البركانية ، وفى خصوبتها ، وفى غاباتها الجميلة ، وفى زلازلها المتكررة ؛ وأما بالى مع الجانب الشرقى من جاوه فلها جوجاف وتربة قاحلة مثل جو تيمور وتربتها . ولكن يقطن بين تلك المجموعات من الجزر المتشابهة المبنية ، كما يبدو ، على طراز

واحد ، والخاضعة لجو واحد ، والمسورة بمحيط واحد ، أنواع متباينة من الحيوانات. ولذا لا تجد النظرية القديمة التى تقول « ليست الخلافات أو المشابهات بين الأنواع المختلفة من الحياة إلا نتيجة للمفارقات أو المشابهات بين البيئآت التى توجد فيها هذه الأنواع المختلفة من الحياة » ، ما ينقضها فى مكان ما مثل الذى تجده هنا . فبورينو وغينيا الجديدة متشابهتان جغرافياً ومادياً كما يمكن أن يتشابه أى إقليمين متمايزين ، ولكنهما ، على الرغم من ذلك، متباينتان من ناحية الحيوانات كما يتفارق القطبان ؛ بينما تجد أن أستراليا ، مع رياحها الجافة وسهولها الفسيحة، وصحراواتها الصخرية، وجوها المعتدل، تنتج طيوراً وحيوانات تشبه هاته التى توجد فى الغابات الخصبة ، الحارة الرطبة التى تغطى سهول غينيا الجديدة وجبالها » .

هنا نجد بيئات جغرافية متشابهة منسجمة مع حياة أنواع شتى من الحيوانات ، ونجد أنواعا متشابهة من الحياة الحيوانية منسجمة مع بيئات جغرافية متخالفة . ولقد دعم هذه الدعوى أحد الكتاب النابهين Gryzanowski بذكر مثل من سردينيا وكورسيكا ، فقال[1] :

« هاتان الأختان ، الواقعتان وسط الأبيض المتوسط ، وعلى بعد واحد من مراكز الثقافة اللاتينية حديثها وقديمها ، واللتان كان يمكنهما الاتصال بسهولة مع البلاد الفينيقية ، والإغريقية ، والشرقية ، واللتان لهما ساحل ذو منافع جمة يجاوز طوله ألفاً من الأميال ، والمحتويتان على ثروات زراعية ومعدنية طائلة لم تكن يوما ما بالمجهولة أو بالمنسية فى الثلاثين قرنا الماضية من التاريخ الأوروبى ـ هاتان الأختان لهما لهجات لا لغات ، وحكايات لمارك لا تاريخ ، ولهما عادات لا قوانين ؛ وتوجد

---

(١) North American Review .

فيهما عادات الأخذ بالثأر لا نظام العدالة . وهما ذواتا حاجات وثروات، ولكن ليست لهما تجارة ؛ فيهما أخشاب ومرافئ ، ولكن ليست لهما ملاحة أو بواخر . هناك قصص خرافية ، ولكن ليس هناك شعر ؛ وهنالك جمال لا فن ؛ وكان يمكن القول من عشرين عاما مضت بأن هناك جامعات ولكن ليس هناك طلاب ... ومن الغريب أن سردينيا ، مع ما لها من قوة وجدانية ومن بدائية عجيبة ، لم تبرز فنانا ما ، كما أن البدائية نفسها غريبة فيها أيضا ... وعلى الرغم من شدة قربهما من المدنية الأوروبية، ومن وجودهما فى المكان الذى كان يمكن أن يعتبره الجغرافى الأول أنسب الأمكنة لكل من التقدم المادى والعقلى ، والتجارى والسياسى ، فقد نامت هاتان الجزيرتان وحدهما نوعا عميقا على صوت لوحة التاريخ » .

يقارن ذلك الكاتب بعد ذلك بين سردينيا وصقلية ، ويذكر بعض التفاصيل فيقول : تمتاز سردينيا بكل الفضائل المادية ، « وكان ينتظر من سكان سردينيا أن يكونوا أكثر تطوراً من سكان صقلية ، من حيث إنهم انحدروا من سلالات متعددة أكثر من تلك التى انحدر منها الشعب الإنجليزى » ، ولكن تاريخ صقلية الماضى تاريخ مجيد ، وتجارتها اليوم عظيمة . وللدكتور Gryzanowski نظريته التى تشرح سبب بلادة سكان تلك الجزر الممتازة . إنه يظن أن جمودها ناشئ عن أنها لم تكن يوما ما ذات حرية سياسية ، لأنها كانت دائماً خاضعة لبعض القوى الأوروبية. سوف لا أمارى الآن فى نظريته هذه ؛ ولكننى أسأل فقط لماذا لم ينالوا تلك الحرية؟ والجواب المباشر هو : لأنه لم يوجد فيها من الأفراد من هو ذو عصبية وطنية وقدرة كافية على أن يُشعل فى قلوب الأفراد الحمية الوطنية والرغبة القوية فى حياة مستقلة . قد يكون أهل هذه البلاد ـ كورسيكا وصقلية ـ مثل من جاورهم من ناحية الصلاحية المادية ، ولكن لا تحترق خير مجموعة من الخشب حتى توضع عليها النار،

ولم يوجد بعد المشعل المناسب الذى يلهب هؤلاء القوم .

يظهر العظماء المتفرقون فى كل مكان . ولكن لابد للجماعة من جمع من النوابغ الذين يظهرون معاً ، أو فى فترات متوالية ، إذا ماقدّر لها أن تظل فى حياة قوية فعالة . وهذا هو السبب فى أن العصور العظيمة قليلة فى التاريخ ، وفى أن الازدهار المفاجىء للأغريق وللروم القديمة ، وعصر النهضة ، كان سراً من الأسرار الغامضة . فلا بد أن تُتبع الضربة بأخرى ، فلا يكون هناك فراغ تبرد فيه الحرارة . وعندئذ تشتعل الجماعة حرارة ، وتستمر مشتعلة بذاتها فترة طويلة من الزمن حتى بعد أن يموت مشعل الحركة . وكثيراً مانسمع الناس يعجبون من تلك الظاهرة: وهى أن هذه العصور العليا فى الحياة الإنسانية لاتجعل الناس أكثر قوة وحيوية فحسب، ولكنها توجد كثيراً من النبغاء أيضاً . ذلك حقاً سر غامض . وهو من العمق مثل السؤال المشهور « لماذا تمر كبار الأنهار بالمدن الكبرى » . ومن الحق أن يقال إن الثورات توقظ كثيراً من النوابغ ، الذين كانوا لا يجدون فرصة للظهور إذا ما كانوا فى عصر خامل فاتر . ولكن لابد مع هذا من أن يوجد جمع من النوابغ قبيل العصر ليوجد تلك الثورات . وإن احتمال وجود هذا الحشد من النوابغ أكثر ندرة من احتمال وجود أى فرد من النوابغ ؛ ومن هنا كانت عصور الثورات والاضطرابات نادرة ، وكانت المظاهر الاستثنائية التى تلبسها هذه العصور نادرة أيضاً .

إنه من الحماقة ، إذن ، أن تتحدث عن « قوانين التاريخ » كأنها شىء موجود بالضرورة يحاول العلم أن يكتشفه ، ويتمكن كل امرىء من التنبأ به ، وإن كان غير قادر على تغييره أو تجنبه . ذلك لأن قوانين الطبيعة نفسها شرطية ، ومتعلقة بالفرضيات . فلا يقول عالم الطبيعة « سيغلى الماء على أى حال » ، ولكنه يقول سيغلى إذا ما وضع على النار . وكل ما يمكن أن يقوله باحث اجتماعى هو إذا ظهر نابغة وأبان

الطريق المستقيم فإن الجماعة تتبعه . ولا شك أنه كان من الممكن التنبؤ من مدة طويلة مضت بأن كلا من ألمانيا وإيطاليا قد يكوّن وحدة مستقرة إذا ما نجح أحد الأفراد فى بدء الحركة . ولكنه كان من غير الممكن التنبؤ بالكيفية التى ستأخذها هذه الوحدة: أهى خضوع لسلطان دولة، أم نظام تحالفى ، لأنه لم يكن هناك من المؤرخين من يمكنه أن يحسب حسابا لفلتات الطبيعة من ولادة وحظ ، مثل هذه التى وضعت سلطة عليا فى وقت واحد فى أيدى أفراد مثل نابليون الثالث، وبيسمارك، وكافور(Cavour)[1]. وهكذا الشأن بالنسبة لسياستنا . إذ أنه من المؤكد الآن أن حركة الأحرار والمصلحين سوف تنتصر. ولكن لا يقدر المؤرخ أن يقول ماهو الشكل الذى سيتخذه هذا الانتصار ، هل سيكون بجعل الجمهوريين يعتنقون هذا المبدأ ، أو بتكوين حزب جديد على أنقاض الحزبين الموجودين . وليس هناك من شك فى أن حركة الإصلاح يمكن أن تنمو فى عام واحد تحت قيادة صالحة أكثر من نمائها فى عشر سنوات من غير تلك القيادة . فإذا كان هناك زعيم عظيم متصف بكل المواهب الاقليمية ، فلا شك فى أنه سيقودنا إلى النصر . ولكننا فى الوقت الحاضر ، ونحن بيئته ، نحن الذين نتحسر لفقده ، ونحتضنه ونحافظ عليه إذا ماجاء ، لا نقدر أن نخطو خطوة واحدة من غيره ولا أن نفعل شيئاً إيجابياً لنوجده[2] .

---

(١) هو ذلك السياسى الإيطالى الذى عاش فى القرن التاسع عشر ، وكان عضواً فى مجلس نواب سردينيا عام ١٨٤٨ ، واختير بعد ذلك بعامين وزيراً للزراعة . وفى عام ١٨٥٢ عين رئيساً للوزارة ؛ وهو الذى أرسل جنوداً من سردينيا إلى شبه جزيرة القرم ؛ وبذا اكتسب صداقة فرنسا وانجلترا . ولما وقعت الحرب بين النمسا وسردينيا عام ١٨٥٩ ، كان النصر حليفه بمساعدة فرنسا . وكانت معاهدة الصلح بعد ذلك خطوة مهمة فى سبيل توحيد إيطاليا .

(٢) بعد أن كتب هذا الموضوع ، ظهر الرئيس Cleveland مشبعا لحد ما من تلك الرغبة. ولكن ليس هناك من شك فى أنه إذا ما كان متصفا ببعض صفات أخرى بالاضافة إلى ما هو متصف به ، فإنه كان يكون أكبر أثراً مما هو عليه الآن .

والنتيجة هى أن مذهب التطور فى التاريخ ، عند ما ينكر الأهمية العظمى للابتكارات الفردية ، يكون مذهبا مبهما وغير علمى ، ويكون انتقالا من الجبرية العلمية الحديثة إلى الجبرية الشرقية القديمة . والثمرة التى تجتنى من هذا التحليل السابق (حتى على الفرضية الجبرية الكاملة التى بدأنا بها) هى بعث همم الأفراد وقواهم لينهضوا . وإن المقاومة العنيفة ضد كل تغيير التى يثيرها المتمسكون بالقديم ، والتى لا يأمل الفرد المصلح أن يتغلب عليها كلية ، لتجد نفسها مايبررها . إذ أنها تجعله يؤخر الحركة قليلا ، ويميل بها هذا الجانب أو ذاك بسبب مابيديه المعاندون من استعداد للقبول ؛ وذلك يعطيها قوة وحيوية . وباختصار ، إن المقاومة تجعله يضغط على الحركة وينعطف بها يمين الناحية التى كانت قد تتجه إليها لو تركت وحدها ، أو شمالها ؛ وذلك يهذبها ويصقلها .

ولأنتقل الآن إلى آخر مرحلة من مراحل موضوعى ، وهى أثر البيئة فى التطور العقلى ؛ ويحق لى الآن أن أتحدث باختصار بعد أن وفيت الموضوع شرحا . قد يبدو لأول وهلة أن المدرسة ، التى ترى أن العقل قابل منفعل وأن البيئة هى العنصر الفعال الذى يوجد بشكل إدراكاته ونظمها ، على حق ؛ وأعنى بذلك المدرسة التى ترى أن كل تقدم عقلى ناشئ عن سلسلة من التغيرات المكيفة بالمعنى الذى شرح آنفا . وتجد تلك المدرسة كثيراً يشهد لها . فنحن نعلم جميعا أن مقداراً كبيراً من مخزوناتنا العقلية ليس إلا تجارب متذكرة ، وليس مسائل مبرهنا عليها . ومن تلك التجارب كل عاداتنا ومعلوماتنا التى يرتبط بعضها ببعض بسبب المجاورة . ومنها أيضا تلك النظريات الذهنية التى تعلمناها فى الصغر مع اللغات التى ولدنا فيها . وعلاوة على كل ذلك ، فهنالك من الأسباب ما يجعلنا نظن أن نظام « الروابط الخارجية » الذى يجربه الأفراد ، هو الذى يحدد النظام الذى يلاحظ العقل على منواله الصفات المتضمَّنة ويستخلصها . وإن السرور والمصالح ، التى يسببها جزء من البيئة ، والمضار والآلام ،

التى يسببها جزء آخر منها ، تحدد كذلك من اتجاه الانتباه ؛ وعلى هـــذا الأساس تتكون النقطة التى نبدأ عندها فى جمع تجاربنا العقلية . فقد يستنتج من كل هذا أنه ليس هناك من فاعل فى تلك الناحية غير ذلك الفاعل ، وهو البيئـة ؛ وكأن التفرقة بين « الاختلافات الذاتية » ، التى توجد الصور المختلفة ، وبين « البيئة » التى تحافظ على تلك الصور أو تهلكها ، التى وجدناها فى المـاضى نافعة ، لا مساس لها بمسائل التطور العقلى . أو بعبارة أخرى ، كأنه ليس هناك من تشابه بين هذه المسائل وبين نظرية دارون ، وكأن سبنسر بقانونه حول العقل كان على حق فى قوله « يرتبط الانسجام بين الحالات العقلية بالتكرار الذى تقع به فى الخارج الحوادث المادية التى تعلقت بها الحالات العقلية » .

ولـكن، على الرغم من كل هذا ، فإنى لا أزال متمسكا هنا أيضاً بتفرقة دارون . فإنى أعتقد أن المسائل المتحدث عنهـا هنا مأخوذة كلها من أدنى طبقة من طبقات العقل ، ومن أقل دوائره تطوراً ، أو من الدائرة العقلية التى يشارك الحيوان فيها الإنسان . ويمكننى بسهولة أن أنقض قوانين سبنسر كلها فى مراحل العقل العليا ، التى هى من خصائص الإنسان ؛ ويمكننى أن أبين أيضاً أن النظريات الجديدة ، والميول الفعالة والعواطف التى يمكن أن تتطور ، نشأت كلها فى الأصل مصادفة فى شكل خيالات وأوهام ونتائج عرضية للاختلافات الذاتية فى عمليات المخ الإنسانى الذى ليس له من قرار . ومهمة البيئة الخارجية، بعد ذلك، بالنسبة لها، هو أن تؤكدها أو تنفيها ، وتحافظ عليهـــا أو تهلكها ، وباختصار ، تتخير منها كما تتخير من الاختلافات الاجتماعية والمورفولوجية الناشئة عن ذرات عرضية من أنواع مشابهة .

من الحقائق المعروفة أن العقول الإنسانية الساذجة عقول حرفيـة . فتخضع للعادات ولا تفعل إلا ما علمته من غير أن تغير فيـه أو تبدل . وهى جافة غليظة

فى ملاحظاتها، وتشير دائما إلى الحقائق الواقعية ؛ ولا تعرف من المزاح إلا النوع الجاف منه الذى يسر المزاج العملى ؛ وتأخذ العالم قضية مسلمة . ولها مع ذلك مواهب من الإخلاص والوفاء تثير منا إعجاباً واحتراماً فى كثير من الأوقات . ولكنه يبدو إخلاصاً من غير عضوى ، وكأنه صفة لقطعة ميتة من المادة ، وليس نتيجة لإرادة الإنسان . فإذا ما نزلنا إلى عالم الحيوان زادت تلك الظواهر كماً وكيفاً . وكل من قرأ شوبنهاور (Schopenhauer) لا يمكنه أن ينسى إشاراته المتكررة لشدة إخلاص الكلاب والخيل واستقامتها ونصحها . وكل من لاحظها لا بد أن يدرك أنها حرفية ساذجة ذات عمليات آلية محضة .

ولكن ارجع إلى أعلى المراحل العقلية ، وستجد خلافا كبيراً . فبدل التفكير فى المحسوسات ، وفى تبعية بعضها لبعض فى طريق معبد بما تقترحه العادات ، تجد فِكَراً متعارضة فى آن واحد وانتقالا سريعا من واحدة لأخرى؛ وتجد أعلى نوع من التجريدوالتمييز ؛ وتجد تركيبا من عناصر مختلفة لم يسبق به علم ؛ وتجد أدق نوع من أنواع الربط الناشىء عن قياس التمثيل ؛ وباختصار ، تجد أنفسنا كأننا قد أُلقينا فى قدر من الأفكار يغلى ، حيث يهتز كل ما فيه ويثور ويضطرب هنا وهناك فى حالة محيرة من الحركة ، توجد الزمالة فيها ثم تنقطع فى لحظة ، ولا يوجد فيها عمل آلى ، بل يخيل إليك أن القانون فيهاهو غير المنتظر . والذى يحدد صفات هذه الومضات هو ما عليه مزاج المرء من حالات : فتارة تكون مُلْحة من ملح العقل والمزاج ؛ وتارة تكون وميضا من شعر وفصاحة ؛ وتكون ، تارة أخرى ، عملا من قصص تمثيلية ، أو من براعة ميكانيكية ، أو تجريداً منطقيا أو فلسفيا ؛ وتارة تكون مشروعات عملية أو فروضا علمية ، مع سلسلة من النتائج العملية المترتبة عليها ؛ أو تكون نغمات موسيقية ، أوصوراً لجمال بارع فتان ، أو إدراكا لانسجام خلق . ولكن، على

الرغم من اختلافها ، فإنها تتفق فى أن أصولها كلها مفاجئة ، وكأنها نسبية ، يعنى أن نفس المقدمات قد لا تؤدى ، بالنسبة لفرد آخر ، إلى نفس النتائج ؛ ولو أن ذلك الآخر قد يقبل النتيجة ويسرلها ، حين تقدم له ، ويغبط هذا الذى وصل إليها أولا على صفاء ذهنه وحدة قريحته .

يُعتبر الأستاذ جيفون (Jevons) أول من أكد أن النبوغ فى الإكتشاف يتوقف على عدد من هذه الفكر المصادفية والحدسيات التى تأتى فى عقل الباحث[1] . وشرطه الأول الخصوبة والغنى بالفرضيات ، وشرطه الثانى هو الاستعداد لإهمال تلك الفرضيات ، وتركها حين تناقضها التجارب . فنظام باكون (Bacon) من ترتيب المثل ومقارنتها نظام له أثره وثمرته فى بعض الأحايين . ولكن لا يقدر العقل على أن يدرك قوانين مجموعة من الحقائق من مجرد مواجهته بها ، إلا كما يقدر كتاب الشخص الكيمائى على أن يكتب بنفسه إسم الشخص المريض ، أو إلا كما يقدر التقويم الجوى على أن ينتبأ بنفسه بالاحتمالات المستقبلة . إن إدراك القوانين يرجع إلى الاختلافات الذاتية بكل ما فى الكلمة من معنى ؛ إنه يبرق من أحد العقول دون سواها ، لأن توازن ذلك العقل يكون بحيث يدفع من نفسه ويرفعها نحو ذلك الاتجاه الخاص . ولكن الذى تنبغى ملاحظته هو أن البريق الصالح وغير الصالح ، وأن الفروض المنتصرة ، والتصورات الهزلية ، تستوى كلها من حيث النشأة . فلقد نشأ كل من منطق أرسطو الخالد ومن طبيعياته المضحكة من أصل واحد ، أى أن القوى التى أوجدت أحدهما هى التى أوجدت الآخر . وقد أبتسم لما يجول بنفسى من خواطر عجيبة عند ما أكون ماشيا مفكرا فى زرقة السماء الصافية ، أو فى جمال جو الربيع . وقد يقع فى روعى

---

(١) مبادئ العلوم.

حل لمشكلة لم تحل من قبل ولم تجل بخاطرى وقت المشى . كلا الأمرين نبع من مصدر واحـد ، ـ من المخزن العقلى الذى لم يكن شىء من إبراز الصور الذهنية فى علاقتها بالاستمرار الخارجى أو بالتكرار متحكما فيه الآن. ولـكن عندما توجد الفكرة بالفعل ، فقد يأتى بعـد ذلك انسجامها مع العلاقات الخارجية ، اللهم إلا إذا كانت خيالا باطلا ، وعندئذ تموت فى لحظة ثم تنسى . فإذا ما جاءنى فرض علمى فإنه يثير عندى رغبة حادة فى البرهنة عليه : فاقرأ ، وأكتب ، وأجرب ، وأستشير الخبراء . وإذا ما ثبتت نظريتى ، وتناقلتها الألسن والـكتب والمجلات ، أصبحت لى القداسة من الناحية الطبيعية . وعندئذ تحافظ البيئة على تلك النظرية ، التى لم تقدر على أن توجدها على يدى فرد أقل طبيعة من طبيعتى .

ولـكن ذلك التغير النفسى للعقل فى تلك اللحظات المعينة ، والتحول إلى أفـكار خاصـة وإلى مركبات من تلك الأفـكار ، مقابل بميول نفسية كذلك نحو اتجاهات معينة : منهـا الميول نحو الفـكاهة ، والميول العاطفية ؛ ومنها النغمة الخاصة لـكل عقل التى تجعله أكثر قبولا لبعض التجارب دون بعض، وأكثر انتباها لنوع خاص من المؤثرات ، وأكثر استماعا لنوع خاص من البراهين دون بعض . وهذه الميول كلها نتيجة لفعل قوى النمو الـكائنة فى المجموع العصبى ، الذى يجعل العقل صالحا لأن يؤدى وظيفته على نحو خاص ، ولا أثر للبيئة فى ذلك. وهنـا ، أيضا ، تستمر عملية الانتقاء فى عملها . وقد تسر النتائج العقلية بمـا معها من اتجاهات وميول وجدانية الجماعة وقد تغضبها : فتقلد وردورث (Wordworth) ، وتصبح هادئة غير عاطفية ، أو تقلد شوبنهاور وتتعلم جمال الـكروب والأحزان . فيصبح الميـل المقلَّد مخمراً فى الجماعة ، ويغير من نغمتها . قد يكون ذلك التغيير لها وقد يكون عليها ، من حيث إنه تغير داخلى ، ولا بد له من أن يبارز تلك القوى الانتقائية للبيئة الـكبرى . فلما كانت

Languedoc المتمدينة متأثرة بعلمائها ، وشعرائها ، وأمرائها ، ورجال اللاهوت فيها ، وقعت طعمة لبيئتها الكاثوليكية فى حروب Albigenses . ولما قلدت فرنسا عام١٧٩٢ Marat ومن معه ، انغمست فى نوع من الحياة غير مستقر وغير متوازن. ولما تأثرت بروسيا عام ١٨٠٦ بكل من Humboldts و Steins برهنت فى شكل بين واضح على أنها منسجمة مع بيئتها عام ١٨٧٢ .

يحاول سبنسر فى أغرب فصل له من فصول علم النفس أن يبين أن تطور النظريات الإنسانية يحدث طبقا لنظام ضرورى . فهو يرى أنه لا يمكن أن تتطور نظرية ذهنية ، حتى تصل التجارب الخارجية إلى مرحلة معينة من الاختلاف فى فى الصفات ، والتعين ، والانسجام . وما إلى ذلك فيقول :

« وهكذا فإن الإيمان بنظام ثابت لا يتغير، أو الإيمان بقانون ، عقيدة لا يعرفها الرجل البدائى . . . إذ أن تجاربه لا تعطيه إلا مقداراً ضئيلا من الجزئيات الدالة على الاطراد فى نواميس الطبيعة ... والتأثرات اليومية التى تأتى الرجل البدائى لاتكون إلا فكرة ناقصة ، وفى حالات قلائل . فغالب ما يحيط به من موضوعات ، — من الأشجار ، والحجارة ، ومن الجبال ، ومواطن الماء ، ومن السحب وغيرها ، يختلف بعضه عن بعض اختلافا بينا ، . . . وقليل منه يتشابه بحيث يصعب التمييز فيه بين الأفراد . وحيوانات النوع الواحد نفسها ، حيها وميتها ، يندر أن تبدو له على شكل واحد أو تبدو ذوات ميول واحدة ... وأما معرفة المتقابلات التى تسمح له بإدراك المتفارقات والمتماثلات فلا تأتى إلا مع التطور التدريجى للفنون . وحياة الرجل البدائى خالية أيضا من التجارب التى تستلزم إدراك الاطراد فى تعاقب الحوادث . فلا يبدو له أى اطراد فى الحوادث المتعاقبة التى يشاهدها من يوم ليوم ومن ساعة لساعة ؛ ولكن التفارق بينها يبدو له واضحا جليا . . . فإذا نظرنا إلى الحياة البدائية

كشيء كلى ، فإنا نلاحظ أنها أميل إلى القول بعدم الإطراد فى الحوادث منهـا إلى القول بالاطراد فيها ، ولا يمكن أن تتضح فكرة الاطراد إلا عند ما توجد الفنون فكرة المعايير ... والشروط التى قدمتها لنا المدنية فجعلت فكرة الاطراد واضحة لنا هى التى جعلتنا ندرك معنى الدقة فى الملاحظة وفى العمل ... ومن هذا يتبين أنه ليس للرجل البدائى إلا قليل من التجارب التى تربى عنده الشعور بما نسميه حقا أو صدقا. وإن ارتباط كل هـذا بالشعور الذى تربيه الدربة على الفنون لواضح فى كل مكان، وتشير إليه اللغات نفسها: فنتحدث عن سطوح حقة كما نتحدث عن عبارات حقة . وكما أن الكمال فى الأشكال الميكانيكية يوصف بالدقة ، فكذا نتائج العمليات الحسابية » .

كل ما يريده كتاب سبنسر هذا هو أن يبين الكيفية ، التى يكيَّف فيها العقل، المفروض أنه منفعل ، بتجاربه للعلاقات الخارجية . ولقد اعتبرت المعايير فى هـذا الفصل ، من الباردة والميزان ، والكرونوميتر ، والآلات والأجهزة الأخرى ، من العلاقات الخارجية بالنسبة للعقل . حقا ، إنها لكذلك بعد أن صنعت ؛ لأن البيئة الاجتماعية احتفظت بها ، ولكنها ليست كذلك باعتبار الأصل. كما أن النظم الأخرى ليست كلها إلا أثراً لعقلية أحد النابغين ، وليست أثراً للبيئة الاجتماعية. فإذا ما تمسكت بها الجماعة وأصبحت ميراثاً لها ، فإنهـا تكون باعثا لنبغاء آخرين على أن يخترعوا ويكتشفوا ؛ وهكذا تدور حركة التقدم وتدوم . ولكن خذ النوابغ من البيئة أوغير من فطرتهم وجبلتهم، ثم انظر، فهل ترى أن البيئة تظهر كثيراً من الاطراد فى التقدم؟ إننى أتحدى سبنسر ومريديه أن يجيبوا .

والحقيقة ، التى لا مراء فيهـا ، هى أن « فلسفة التطور » ليست إلا عقيدة ميتافيزيقية . إنها اتجاه وجدانى وحالة خاصة من حالات الشعور ، وليست نظاما

تفكيريا . إنها حالة قديمة قدم العالم ، فلا يبطلها إبطال رأى فرد من أنصارها ، مثل فلسفة سبنسر ؛ إنها ذلك الأسلوب الجبرى القديم مع إدراكه البديهى « للواحد وللكل » ، الذى كان أبداً ، ويكون أبدا ، وسيكون كذلك ، والذى تصدر عنه جميع الأشياء. لست محاولا هنا الاستخفاف بذلك الأسلوب القوى القديم من التفكير فى العالم. إذ أنه أسلوب لا شأن لنا نسميه الآن بالكتشفات العلمية به ، فلا يقدر أن يوجده ولا يقدر أن يعدمه ، على الرغم من أن روحه قد لا تنسجم مع الاختلافات الطبيعية التى يجمعها العلم . إنه يسخر من الاختلافات الطبيعية التى يبنى عليها العلم . وذلك لأنه يستمد قوته الحيوية من دائرة مباينة لتلك الدائرة التى يثوى فيها العلم. ولكن الناقد، الذى يعجز عن هدم العقيدة الميتافيزيقية ، يقدر ، على الأقل ، أن يحتج عليها بسبب إخفائها نفسها وتدثرها بالثوب العلمى. وإننى ، أخيراً ، أعتقد أن هؤلاء الذين تابعونى حتى الآن فى البحث ، يوافقوننى على أن التاريخ يكذب فلسفة سبنسر فى التطور الإجتماعى والعقلى تكذيباً مطلقاً ؛ ويوافقوننى أيضا على أنها عود إلى الأفكار التى كانت موجودة قبل دارون . كما أن فلسفته فى القوة تزيل كل تفرقة سابقة بين الكامن والفعلى من الطاقة والقوة والكتلة وغيرها ، وهى تفرقة لم يصل إليها علماء الطبيعة إلا بعد جهد شديد ؛ وترجعنا ، ثانية ، إلى ما قبل عصر غاليلو .